من كتب الشرق والغرب

كتاب الفاشوش

هذا الكتاب أقدم الكتب الفكهة فى تاريخ مصر العربية . وقد ألفه ابن مماتى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين ، أو كما نقول نحن الآن وزير المالية والحربية . وكان آباؤه من نصارى أسيوط نزحوا إلى القاهرة فى عهد الفاطميين واتصلوا بهم وفوضوا إليهم كثيراً من شؤونهم وأعمالهم . فلما قدم صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من قبل نور الدين ، وأصبح إليهما أمر مصر اضطهدا موظفى الدولة من القبط ، واضطرت أسرة ابن مماتى تحت تأثير هذا الاضطهاد أن تسلم حتى تحتفظ بمكانتها فى الدولة ، واستقام لها ذلك ؛ فان صلاح الدين قرب منه المهذب مماتى ، وجعله قيما على ديوان الجيش ، فلما توفى خلفه ابنه فى عمله ، ثم أسندت إليه الشؤون المالية فأحسن تدبيرها وتصريفها .

وقد اشتهر ابن مماتى فى عصره بسرعة البديهة واللذع فى النادرة . يقول ياقوت عنه فى كتابه «معجم الأدباء» : إنه كان ذا خاطر وقاد مسارع . ويقول أيضا : إن له نوادر حسنة حادة . وقد تعلقت هذه الشخصية الفكهة بشخصية أخرى عاصرتها ، هى شخصية قراقوش التركى أحد قواد صلاح الدين وأصفيائه ، وكان فيه — على ما يظهر — شىء من الغباء والغفلة والشدة والقسوة ، ومع ذلك كان صلاح الدين يسلم إليه مقاليد مصر حين يغيب عنها فى حروبه الصليبية ، وهو الذى قام على بناء قلعة الجبل المعروفة بقلعة صلاح الدين . ويحدثنا الرواة أن صلاح الدين كان يشرك معه بعض أولاده فى إدارة مصر أثناء غيبته لما يعلم من عدم فطنته ونباهته . ولكن حدث ذات مرة أن ترك له حكم مصر منفردا ، فتشوش عليه الأمر ، وأتى فى حكوماته بين الناس من الحمق والغفلة ما جعل أكبر كاتب فكه لعصره وهو ابن مماتى يضع عليه الحكايات المضحكة ، وقد نسقها فى الكتاب الذى نحن بصدده الآن وسماه هذا الاسم الطريف «كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش» وإنه ليستهله بقوله : «إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخرمة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف غمهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم ، والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يرد [على] كلمته ؛ ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين» .

ويذهب بعض المستشرقين ، وهو الأستاذ كازانوفا الذى عنى ببحث هذا الكتاب ونشره ، إلى فكرة طريفة خلاصتها أن ابن مماتى لم يؤلف هذا الكتاب لغرض الضحك فقط عن غفلة قراقوش وغبائه ، بل ألفه سخطاً على الدولة الجديدة التى خلفت الدولة الفاطمية ، وهى دولة كانت تتعصب على القبط عكس دولة الفاطميين ، فأراد أن يكيد لها بتعقب أحد حكامها تعقباً مضحكا ، أو قل

تعقباً ساخراً ، يسخر أثناءه من صلاح الدين وما كان من طغيانه هو وحاشيته أو بطانته . وهى فكرة قيمة ، وإن كان يضعف منها أن ابن مماتى لم يكن نصرانيا حين تأليفه هذا الكتاب ، أو على الأقل ليس بين أيدينا دليل على أنه كان نصرانياً حينئذ ، إذ كان قد أسلم . ومع ذلك فربما كان أسلم على ضعن وموجدة . ومن يدرى لعل المصريين جميعاً قبطاً ومسلمين كانوا يتعصبون على دولة صلاح الدين ، وخاصة أنه ألغى كثيراً من أعيادهم الفاطمية ، وأيضاً فانه أتعبهم فى غاراته وحروبه الصليبية . ويظهر أن بطانته كانت كلها أجنبية أو تكاد . ومن هنا تسلل بعض معاصريه ، وهو ابن مماتى إلى الكيد لهذه الدولة عن طريق الفكاهة ، وهو كيد قديم عرفت به مصر منذ عهد الرومان ؛ فقد كانوا يستقبلون ظلم بعض القياصرة بالفكاهة الساخرة ينفسون بها عن صدورهم . وهذا هو ما لجأ إليه ابن مماتى فى عهد صلاح الدين ، فقد تعقب أهم قواده ، وما كان من حكوماته الطائشة بين المصريين ، فألف فيها هذا الكتاب الطريف كتاب الفاشوش . وأول ما نلقاه فى الكتاب من هذه الحكومات أن سيدة حجازية تقدمت لقراقوش تشكو له جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء فرد شكواها عليها مدعياً أنها ليست السيدة بل هى الجارية ، والجارية هى السيدة ، وهم بحبسها لولا أن تدخلت الجارية فعفت عن سيدتها . وتمضى حكومات قراقوش على هذا النحو المضطرب : فمن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلا « أجرودا » كان ما يزال يعبث بلحيتيهما ، ونظر قراقوش إليهما وإلى خصمهما فلم يجد له لحية ، حينئذ قلب الوضع فى القضية إذ ظن أنهما هما اللذان اعتديا عليه بنتف لحيته ، فصاح فى غلمانه : ودوهما إلى السجن ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الرجل : وهكذا رد الأمر إلى نصابه على ما ظن وتصور . ومن هذه الحكومات المضحكة أن الشرطة جاءته يوماً بأحد غلمانه ، وقد قتل نفساً محرمة بغير حق ، فقال اشنقوه . فقيل له : إنه حدادك الذى ينعل لك الفرس ، فان شنقته انقطعت منه ، فنظر أمام بابه ، فرأى رجلا قفاصاً ، فقال : اشنقوا القفاص وسيبوا الحداد !

ونحن إنما نضحك من هذه الحكومات لأن منطق الحكم فيها ليس هو المنطق الذى ألفناه ، فان قراقوش يتصرف فى القضايا بحمق غريب ، وهو حمق لا يستقيم مع عقولنا ولا منطقنا ، حمق فيه طيش وفيه غفلة وفيه ظلم صارخ . وهل يريد ابن مماتى غير ذلك ؟ إنه لا يريد إلا أن يعرض علينا قراقوش فى صور مضحكة تضحكنا من حكوماته وما يعتورها من غباء ونزق ، وما تخفى فى باطنها من ظلم يجسمه ابن مماتى تجسيما . وإننا نضحك لا للظلم الذى وقع على هؤلاء الأشخاص ، وإنما للتباين بين المقدمات والنتائج . فسيدة تدخل عنده لتشكو له خادمتها ، فاذا هما تخرجان فى حال شاذة ، إذ نرى السيدة أصبحت خادمة والخادمة أصبحت سيدة ، وكذلك الشأن فى الرجل « الأجرود » فقد دخل بدون لحية ، وخرج ولا بد له من لحية إلا أنها نتفت ، أو قل : دخل متهما وخرج متهما . وفى النادرة الثالثة نرى القاتل يبرأ ، والبرىء يقتل ، وكأنما لسنا بازاء دار من دور الحكم والقضاء ، إنما نحن بازاء ملعب هزلى نرى فيه رجلا يأخذ سمت الحاكمين ويصطنع شاراتهم ، ولكنه ما يبدأ النظر فى القضايا والحديث مع الخصوم : المدعين والمتهمين حتى يشوش عليه الأمر ، فاذا هو يحكم دائما حكومة مهوسة . وأى هوس يفوق هوس هذا الحاكم الذى يقلب الأوضاع

فى قضاياه قلبا يزرى بعقولنا لأنه يلغيها إلغاءً ، يلغى ما فيها من منطق وفكر مستقيم .

ونستمر فى قراءة كتاب الفاشوش ، فاذا ابن مماتى يروى أن قراقوش طلب إلى أحد القضاة أن يهيىء له حساب القمح والشعير والفول والحمص ، وقام القاضى بطلبه ، إلا أنه وضع الحساب كله فى جريدة واحدة أو كما نقول نحن الآن فى صحيفة واحدة ، فاختلط الأمر على قراقوش ، وظن أن القاضى خلط هـذه الأصناف بعضها ببعض ، ولولا ذلك ما استطاع أن يجمعها فى جريدة واحدة وأمر بحبسه ! وتنبه القاضى للمسألة ، فأرسل إليه من الحبس بحساب كل صنف فى جريدة على حدة . حينئذ سر قراقوش وعفا عنه قائلا : لقد تعبت يا فقيه ، نقيت هذا من هذا وذا من ذا ، زفوه فى المدينـة . أرأيت إلى ابن مماتى كيف يسخر من قراقوش إذ جعله يظن حين أفرد القاضى كل صنف بجريدة أنه نحى الأصناف بعضها عن بعض . وينقلنا ابن مماتى من هـذه النادرة إلى نادرة أخرى لا تقل عنها طرافة ، وذلك أن النيل توقف بمصر أيامنا ، فنظر قراقوش فرأى جمال السقايين وهى تسير فى شوارع القـاهرة عشرين عشرين فقال : ياغلمان ! نادوا فى المدينة قد أمر بهاء الدين قراقوش أن لا يملى أحد من البحر إلا جملا واحدا ، ففعلوا ذلك ، فأوفى النيل فقال : ياهؤلاء ! كيف رأيتم رأيى عليكم ؟ ما هو إلا رأى مبارك . وكأن قراقوش ظن أن هذه الجمال هى التى تنقص ماء النيل فتمنع الفيضان ! وأيضاً فقد فاته أنه إنما حرم على هذه الجمال أن تحمل المـاء مجتمعة ولم يحرم عليها أن تحمله منفردة ، فحكمه من هذه الناحية لا نتيجة له ، ولـكنه قراقوش مثلة عصره والعصور التالية فى الغفلة والغباء .

وما نظن أحداً فى تاريخ مصر والمصريين بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن مماتى من التشهير بقراقوش وحكوماته بين النـاس ، وهو لم يبلغ ذلك عن طريق هجائه لقراقوش بالشعر ، وكان شاعراً ممتازاً ، وإنما بلغه عن طريق هذه النوادر الشعبية التى اختار لهـا لغة المصريين الدارجة ، وكأنه كان يريد أن يطابق بين مايرويه وبين اللغة الحقيقية التى كانت تدور بين قراقوش ومن يحكم بينهم من الناس حتى يحافظ على أصـل نوادره محافظة دقيقة . ولعله كان يريد لهذه النوادر أن تشيع بين العامة ، ومن أجل ذلك اختار لها هذه اللغة الدارجة ، وهى فعلا قد شاعت فان المصريين فى مدنهم وريفهم كلما قابلهم حكم ظالم قالوا : « دا ولا حكم قراقوش » . وقد يكون قراقوش دون كل هذا الظلم الصارخ الذى صوره ابن مماتى كما يذهب إلى ذلك الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه « حكم قراقوش » ؛ فقد نصب نفسه فى هذا الـكتاب مدافعاً عن قراقوش فى تحيز ظاهر . ونحن لا نستطيع أن ننفى ما أثبته كتاب الفاشوش على قراقوش من ظلم وغباء ؛ فان نفيه لا يدل عليه دليل واضح ، بل المعقول أن يكون على الأقل لهـذه الحملة التى حملها ابن مماتى على قراقوش أصل من سيرته وخلقه وحكوماته بين الناس .

وقد وفق ابن مماتى توفيقا لا نظير له حين اختـار دار الحـكومة ليعرض فيها قراقوش هذا العرض الفكه ، وهو عرض أراد به أن يشـوه الدولة الأيوبية الجـديدة كلها ومن تصطنعهم فى أعمالها وشؤونها ، وإنه ليستمر فيروى نادرة بديعة ، وهى أن شيخا وصبيا أمرد احتكما إلى قراقوش فى دار ، كل منهما يدعى أنها له ؛ فلما مثـلا بين يديه قال قراقوش للصبى : أمعك كتاب يشهد لك ؟ ثم رجع إلى نفسه فتراءى له أن الدار لا تكون إلا للشيخ الـكبير ، حينئذ قال للصبى : ياصبى ادفع له داره ، وإذا صرت فى

عمر هـذا الشيخ الكبير دفع لك الدار !

وعلى هذا النسق مايزال ابن مماتى يصور قراقوش فى هذه الصور الهزليـة التى كان يسمر بها المصريون لعهد صلاح الدين سمراً فيه لهو ومتعة ، وفيه هذا البلاء الذى صبه قراقوش على رءوس الناس . والغريب أن ابن مماتى حين تصـدى له فى هذه النوادر والفكاهات لم يترك منـه جانباً إلا وشوهه ومسخ خلقه حتى دينه ، فقد قص أن شاعرا تقدم إليه ليمدحه ببعض شعره ، فلما فرغ من إنشاده قال له قراقوش : « يا مقرئ ! لقد قرأت قراءة طيبة . » فقد ظنه يتلو قرآنا ، وكأنه لا يفرق بين القرآن والشعر ، وليس ذلك كل ما يريده خصمه به ، فانه يريد شيئاً وراء ذلك ، يريد أن قراقوش لا يعرف ما يقال فيه مدحاً مما يقال فيه ذما .

ومهما يكن فان ابن مماتى عرف كيف يحيل قراقوش إلى شخصية روائيـة للغفلة والحمق . وقد أضافت العصور التالية إلى هذه الشخصية خطوطا وألوانا أخرى ، إذ نسب إليها كثير من القصص المضحك . بل إننا نجد كتباً تروى نوادرها ، كتباً جديدة ، فقد ألف السيوطى كتابا استعار له نفس اسم كتاب ابن مماتى ، ولـكنه يختلف عنه فى كثير من طرفه ونوادره ، مما يدل على أنه من صنعه أو على الأقل من صنع الأجيال التالية لابن مماتى ، وهو حقاً يلتقى مع كتاب ابن مماتى فى كثير من نوادره ولـكنه ينفرد بطرائف جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش شخصية روائية ، فالرواة والقصاصون يضيفون إليها كثيرا من النوادر والحكايات المضحكة . ولعل من أطرف ما ساقه السيوطى ما رواه من أنه «سرقت عملة فى زمن قراقوش ، فقال لاصحاب العملة : الحارة بتاعتكم لها درب (يريد بابا) فقالوا له : نعم . فقال : اذهبوا ائتونى به ففعلوا وجاءوا بالدرب إليه ، فقال مدوه ، فقالوا يامولانا هذا خشب لا يعقل ، فقال افعلوا ما آمركم به فمـدوه وضربوه ونزل قراقوش ووضع أذنه بجانبه وجعل يوشوشه ، فلما فرغ قال : اجمعوا لى باقى أهل الحارة ، فلما حضروا قال لهم الدرب يخبرنى أن الذى سرق العملة على رأسه ريشة ، وكان سارق العمـلة (واقفا) بجملة النـاس ، فتوهم ورفع يده إلى رأسـه ، فرآه قراقوش ، فأمر به وقرره بالضرب ، وأحضر العملة ودفعهـا إلى أصحابها . » وما من ريب فى أن هذه النادرة لو صحت لأضحكت الناس طويلا فى عصره وبعد عصره . ويحكى السيوطى أيضاً أنه « كان بمصر رجل تاجر وكان بخيلا ، وكان ولده يقترض على موته قدراً معلوما ، فزاد عليـه ، وما مات والده ، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده بالحياة ، فدخل هو والدائنون عليـه ، وغسلوه ، وكفنوه ، ووضعوه فى النعش وهو يستغيث فلا يغاث ، وجاءوا حول تابوته ذاكرين يصيحون حوله ، فلما دخلوا للصلاة عليه اتفق أن قراقوش كان ماراً فنزل وصلى عليه ، فلما سمع الميت بذلك قال : الحمد لله جاءنى الفرج فجلس فى التابوت ، وقال يا مولانا السلطان ! خلص حقى لى من ولدى فانه يريد دفنى بالحياة ، فقال له : كيف تدفن والدك بالحياة ؟ فقال الولد : كذب على يا مولانا السلطان ما غسلته إلا وهو ميت ، ولاحملته إلا وهو ميت ، وهؤلاء (الحاضرين) يشهدون بذلك ، فقال للحاضرين : أتشهدون بذلك ؟ فقالوا نشهد بما قال الولد ، فالتفت قراقوش للميت وقال : أنا جئت أصـدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين ، روح اندفن بلا شفاعة ، لئلا تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم ، فحملوه ودفنوه بالحياة فى ذمة قراقوش . » ويحكى السيوطى أيضاً : « من طرفه أنه طار له باز ، فقال : أقفلوا باب النصر وباب زويلة ،

فان الباز لا يجد له موضعاً يطير منه ! »

وعلى هذا النمط نجد شخصية قراقوش تصبح شخصية خيالية لكل حاكم مهوس ، فيه بله ، وفيه غفلة ؛ ولذلك كثر القصص حوله ، وكثرت النوادر التى تروى عنه . وهناك كتاب يظهر أنه ألف فى عصر متأخر ، وهو يذهب مذهب الكتابين السابقين ويسمى « الطراز المنقوش فى حكم السلطان قراقوش » . والحق أن ابن مماتى نجح نجاحا هائلا فى تشويه شخصية قراقوش وعرضها أو عكسها فى هذه المرايا المحدبة من فكاهاته ونوادره .

ومع مرور الزمن وتتابعه أصبح اسم قراقوش يتخذ رمزاً لكل شخص مضحك . وأكبر الظن أن كلمة « كراكوز » التى تطلق فى الشام وتركيا على خيال الظل ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش ، وقد دخلت إلى مصر باسم « اراجوز » . وإن فى ذلك ما يدل على نجاح ابن مماتى فى « التشنيع » على قراقوش والتندر عليه ، وهو تشنيع نفذ منه إلى كل ما كان يريده الصريون فى عصر صلاح الدين من ضحك على الدولة الأيوبية الجديدة وتفكيه .

شوقى ضيف